الإبداع الفني لأنيس منصور

عرفاني رحيم *

نبذة عن أنيس منصور:

في ٢١ من أكتوبر٢٠١١ م رحل عن عالمنا أديب كبيروراائد من رواد الحركة الفكرية والثقافية، وهو الأستاذ أنيس منصور الذي عالج معظم فنون القول، من قصة قصيرة ورواية ونقد ودراسة أدبية وسيرة ذاتية ومقال أدبي وترجم عددا من القصص والمسرحيات. عرف باهتماماته الواسعة بالتراث العربي. ترك خلفه المكتبة العظيمة التي تزيد في إثراء الثقافة العربية بما تحوي من نوارد الكتب في موضوعات شتى.

قضى حياته كلها في التأمل والقراءة فدرس الأدب الفرنسي والأدب الروسي بالإضافة إلى الأدب العربي. فتأليفاته لاقت اهتماما كبيرا من الأدباء والنقاد والدارسين كما نال اهتمام وتقدير المحافل الأدبية ونوادي الأدب والجامعات المختلفة داخل مصر وخارجها. وأقبل على أدبه الدارسون في العالم العربي وخارجه. كما تأثر به عدد كبير من عمالقة مصر مثل العقاد وطه حسين وسلامة موسى ومجدي العفيفي وأفادوا من ريادته الأدبية.

أنيس منصور كاتبا:

كان في بداية كتابته يميل إلى الرومانسية والسبب وراء ذلك هو حياته العزلة وتأثره بها وانتماؤه إلى الطبقة المسحوقة والمتروكة أي الغجرية وإقباله

---

* الأستاذة المساعدة، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، أونتي بورة، كشمير

على مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي. وبعد ذلك اهتم بقراءات جديدة مثل البرتومورافيا وجوستاف فلوبير التي تمثل وتحمل لواء الواقعية في الأدب العالمي.

فلعله أول من نعرف من كتاب القصة القصيرة في مصر الذين عبروا عن حياة الغجرين لانتمائه إلى تلك الطبقة. فقد تنقل كثيرا في الريف المصري لأن والده كان يعمل في أماكن كثيرة وهو وراءه يجري ويلاحقه ويتدحرج على الريف المصري ولا يثبت على أرض. فلا يثبت له علاقات اجتماعية: الأصدقاء والأقارب والجيران. فكأنهم يقيمون في خيام على أطراف المدن. وعندما كبر واستقر رأسه على كتفه أدرك بأنه يميزه عن غيره من الصغار وأحس أنه ينتسب إلى فصيلة أخرى من الناس عندما تفوق في كل مجال الحياة. وكان الأسبق إلى اختيار هذا الجانب من حياة أبناء الريف المصري ومعاناتهم من أجل الحصول على لقمة العيش في كتابه " نحن أولاد الغجر".[1]

إن من أهم الصفات التي تزيد في مكانته الأدبية فهي بأنه كحياته الشخصية لم يستقر في قلمه في مجال واحد ومقام واحد بل كتب من القصة إلى المسرحية إلى المقالة إلى السياسة ومن كتاباته عن الوجودية إلى تحليل المرأة إلى محاولة كشف المجهول في " الذين هبطوا من السماء " و" الذين صعدوا إلى السماء " إلى التصوف والدين في " طلع البدر علينا " " والخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم " إلى أدب التراجم والسير. كتب عن المعذبين والمطحونين فيها مختارا شخصياته من ذوي العاهات في المجتمع.

ولا يغيب عن بالنا نزوع الكاتب نحو النقد الاجتماعي وتعرية العيوب البادية في الواقع كما أنه لا يتوقف عن متابعة حركة المجتمع في تطويرها الصاعد فهو يصور إنسان هذا المجتمع في مختلف المراحل والظروف التي يمر بها مجتمعه ليؤكد انعكاس العالم المادي المحيط على سلوكياته وقيمه وأخلاقه.

وهو يؤمن بأن حادثا بسيطا يقع في الحياة الإنسانية قد يغير وجه التاريخ وكذلك الإنسان قد يعرض له حادثات تافهه. فيغير مجرى حياته. يغير نظرته للحياة وللأمور ويبدله تبديلا ويخلق منه رجلا آخر. لذا فإنا نراه يلتقط مواقف بسيطة يعبر فيها ببساطة عن إنسانية الإنسان. وأن معظم قصصه تدور حول أحداث عابرة أو مواقف خاطفة. لا خطورة فيها ولا جلال لكنه – بفن – يحولها إلى عمل مؤثر وعظيم. [٢]

فهناك من هم أقل منه نتاجا أقصر منه مشوارا وأبعد عن التفرغ الصحيح للكتابة. استطاعوا أن يحصلوا على قدر كبير من الشهرة والثروة معا. أما هو فإنه آثر الفن والصمت. وأحب التفرغ للإبداع كما يبدو بأنه ملتزم بقيمة فنية يندر أن نجد من كتابنا القدامى والمحدثين من حرص على التشبث بها. لا يبالي أن يحصل على أكبر عائد مادي من القصة الواحدة بل يقف على النقيض تماما فنيا وماديا.

فيتضح أن بحياته الثقافية والأدبية يكاد يكون الكاتب المصري الوحيد الذي يحظى باحترام ذوي الاتجاهات العقدية والفكرية. من اليمين واليسار. فهو لا يقحم نفسه في خضم المعارك أيا كان من نوعها ولونها واتجاهها. بل قنع بالاعتدال والتوازن لنفسه ولفنه في آن واحد. فلا يكتب إلا ما يؤمن بصدق مع نفسه إنسانا وصدقه مع مجتمعه واقعيا وصدقه فنيا مع القصة القصيرة.

يقول: "أنا أنتسب إلى الذين يتوكلون على الله. والذين يحمدون الله على كل شيء. ويمكنك أن تختار ألفاظا أخرى لهذه المعاني فتول: أنني متواكل. (٣) ويقول في موضع آخر:

> " فأنا أضع نفسي بين المجتهدين لأنني أعمل كثيرا وأجد العمل واجبا ومتعة. وأقرأ كثيرا جدا أكثر مما أكتب وأجد لذة في ذلك وأختار الساعات الصغيرة من أي يوم. من الرابعة صباحا حتى

العاشرة صيفا وشتاء. وكنت أتمنى أن أقوم من النوم الساعة الثامنة أو حتى السابعة من أيام الأعياد والإجازات الرسمية ولكن لم أفلح".[٤]

إنه أثرى الحياة الصحفية في مصر طلية خمسين عاما بكتاباته المتميزة يستطيع بأسلوبه توصيل المعلومة إلى القارئ ويقدم كل شيء بسهولة وعاش أجيالا متعاقبة منذ طه حسين. فأسلوبه الساحر جعل القراء يحبونه لأنها تدل على علم كبير وأسلوب بسيط. فيقول:

"ولا تغيب الكتب الجديدة عن أمالي ثم عن عيني، في كل مجالات الفكر التي تهمني: الفلسفة وعلم النفس والأدب والتأريخ والسياسة والدين والفن. .....ثم إنني اتجه إلى الذي أعرفه. فاكتب وإلى الذي لا أعرفه فأقرأ. ويرضيني ذلك. ويبدو أن هذا الإخلاص في العمل وهذا الصدق في الأداء، له ثمن عند الله وعند الناس. وهذا يمكن أن تسميه الرضاء وما يسميه الناس بالتواكل ". [٥]

وفي فترة الستينات والسبعينات قام بدور هام إذ ساهم في نقل الثقافة الغربية وخاصة الفلسفات الوجودية إلى الثقافة الغربية. إنه لم يكتب إلا عن الشخصيات استمدها من الواقع المصري من خلال مواقف مصرية، بروح مصرية ونهم عميق لطبيعة الإنسان المصري في الحركة والسلوك والتفكير والإيمان. لذا فإننا لا نخطي بما يثبت من خلال نصوص إنتاجه الكثيرة بأنه يدعى القومية العربية والعروبة والوحدة العربية. يعلن بذلك ويصرح به كما فعل توفيق الحكيم وحسين فوزي ولويس عوض وغيرهم. فأدبه هو يوكد ذلك.

فأنيس منصور يضع القارئ في الاعتبار ويعتبره طرفا هاما جدا. كان حريصا على هذا القارئ العادي، في البيئة المحلية، ليقدم إليه مسائل وأمور وشخصيات محلية. فإنه اختار أن ينشر قصصه القصيرة في الصحف اليومية

وهي سوف تساعده على أن تكون القصة القصيرة فعلا مما إحكام الصياغة والسبك والتدفق في انتقاء كل كلمة فقد نشر في صحف " الأساس " و" الأهرام " " و" روز اليوسف " و" أخبار اليوم " و" أكتوبر " والمجلات " هي " الجيل " وادي النيل " و "آخر ساعة".

ووعيه بالمجتمع المصري مرتبط ارتباطا وثيقا بوعيه الفني وإن كان هذا لا يظهر بشكل مباشر في قصصه ولكننا نتلمسه من العلاقات التي بينه وبين الشخصيات ومن دوافع السلوك والمواقف التي يركز مجلة " الأهرام ". ومن هنا تجده في قصصه القصيرة جميعا لا يخرج أن تأتى القصة وقد اكتملت لها وحدة انطباع ووحدة شعورية لأنه يقتحم الداخل ويحفر في الأعماق لينقل إلى القارئ إحساسه مما انطبع في نفسه، من الواقع الخارجي. تكاد تكون قضية "الاستقلال الفكري" هي مفتاح شخصيته كأنها سيطرت عليه سيطرة تامة ويمكن لنا أن نرد كل كتاباته وأفكاره إلى إيمانه بهذه القضية، فلم يخل مقال من مقالاته من تأثير هذه النزعة ودعا الأدباء إلى التجديد والتمسك بالشخصية المصرية بمعنى أن يكون لمصر أدبها وفكرها وفنها وأن تتضح في كل الأعمال السمات الخاصة بالبيئة المصرية والملامح المستقلة النابغة من الأرض المصرية. ما دامت مصر قادرة على أن يكون لها فكرها وفنها وأدبها. (٦)

إن ميزته المهمة فهي نداءه إلى ضرورة دراسة الأدب العربي في أضواء جديدة محاولا لاستفادة قدر الاستطاعة بالدراسات المماثلة للآداب الأوربية كما ينادى إلى دراسة رواد الفكر العالمي واتجاهاته المعاصرة والعكوف على الاستزادة من الآداب الغربية الحالية والبحث في آداب الأمم شرقية كانت أو غربية. فالثقافة لا تعرف وطنا وحدا وما برحت الثقافات تتأثر بعضها ببعض يجعل أمر اللقاء الفكري والاتصال الثقافي سهلا ميسورا.

كان أنيس يلح إلحاحا قويا ويؤكد على أهمية الاطلاع على ثقافات الأمم

الأخرى قديمة وحديثة ومعاصرة وكما يؤكد على معرفة طريقة التفكير للشعوب الأخرى وملاحظاتها أعمالا حية وهو في كل ذلك لا يفتأ ينظر إلى كل ما يحيط به من ظروف وملابسات ومقومات خاصة بالبيئة المصرية والطبيعة المصرية ليفهم حياتها الفردية والاجتماعية والقومية.

كما لا يهمل معنى الاطلاع على الثقافات الأخرى إهمال الثقافة القومية أ وترديد أقوال مفكري الغرب وأدباءهم أو تقليد الأعمال الفنية الغربية حرفيا لا تجديد فيه. وليس من شك أن جهوده في هذا الاتجاه قد أثمرت إلى حد كبير وكتاباته أسهمت إسهاما إيجابيا فعالا في خلق مدرسة أدبية جديدة في أدبنا الحديث. فيقول في هذا الصدد:

"ما دمنا لن نحاكي الأقدمين ولن نقلد الغربيين يصبح بعدئذ أن نلتحم بواقعنا وإلا ننفصل عنه بحيث تبرز شخصيتنا الميزة المستقلة بملامحها الخاصة وسماتها المنفردة. وهنا يلعب الفكر والفن دورا رئيسيا يكون من شانه أن يخلق الشخصية المصرية المستقلة حتى لا يشعر أبناء هذه الأمة أنهم يحيون حياة طفيلية في تفكيرها وفنها وأدبها وفي علومها ونظمها وسلوكها وملبسها وحتى نظام العائلية والعادات والتقاليد. ويتأتى هذا عن طريق التعبير عن الحياة الواقعية الفعلية التي يعيشها الناس حقيقة لا خيالا. فالأدب عنده ليس إلا صورة من الحياة ويحب أن ننقل إليه هذه الحياة دون زخرفة. والعمل الفني الجيد هو العمل الصادق في التعبير عن مشاعرنا وأحاسيسنا وخلجاتنا. وهو العمل الذي يصور حياتنا بدقة كما تود أن تكون. كما أنه العمل الذي يجرؤ على إظهار نقائصنا وعيوبنا أي أنه يجب أن يكون فنا مصريا بحتا متمشيا مع تطورنا ومحتفظيا بكل مميزاتنا". (٧)

وفي علاقة الفكر والفن والأدب بالمجتمع والحياة انتهى إلى توثيق الصلة بين هذه الألوان من النشاط الإنساني وبين الحياة الواقعية ودافع عن الفكرة وتحمس لها ودعا إليها في كل كتاباته مما قد ينهض دليلا على اعتباره واحدا من الذين حملوا لواء الدعوة إلى الواقعية في الأدب العربي الحديث.

فأنيس منصور هو الغواص الذي تدرب على سباحة المسافات الطويلة والغوص في البحار لنفس الإنسانية العميقة في قلمه اللامع الذي لا يجف ولا يصدأ. إنه فتح رأسه على عوالم باهرة ومشاعر باهرة. أما أسلوبه فهو أسهل الأساليب العربية في الأدب الحديث وأما معانيه فهي المتجددة المتدفقة. أما أهدافه فهي أن يعرفك بنفسك وأن يعرف منك نفوس الآخرين وأن يجدد إقامتك في الدنيا ويمد في تأثيره دخولك وخروجك فتكون أكثر حرية وأنضج حكمة. (٨)

هذا جانب من جوانب أنيس منصور المتعددة فلا أحد يستطيع أن ينكر إسهاماته في المجال الفكري والفني والأدبي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢. فهذا المفكر الثوري كتب في الفلسفة والأدب والفن وألف القصة وأرخ لحياة كثير من الأعلام ونشر الدراسات في التاريخ والعلم والفن والاجتماع والمرأة. ونتعقد أنه في حاجة ماسة إلى دراسة كاملة مستوعبة شاملة. تتناول هذه النشاطات جميعا.

فهو الفنان صانع ألوانه ومشاكله وهو يحبس نفسه بنفسه لكي ينتج كما يخربش نفسه بأظافره ليصرخ، ويعتصر عينيه ليبكي فهو مثل حيوان اللؤلؤ الذي يفرز دموعه الفضية في عزلة تامة ومثل دودة القز التي تحيك حولها كفنا من الحرير. تموت فيه ثم تظهر فراشة لتستأنف الحياة من جديد.

فلا يهمل مكانته في إيضاح وضع المرأة في المجتمع المصري والعربي. فأكثر مؤلفاته تدور حول قضايا المرأة ومشاكلها وأسرار الزواج والحب ومخاوفها قبل الزواج وبعده. وهو في هذا يحتل مكانة مرموقة. يقول في هذا السياق:

"ولكن الذي بين المرأة والرجل ليس فيه نصر أو هزيمة .. غالب أو مغلوب .. وإنما هو توافق" مستمر بينهما. أو محاولة لذلك". [٩]

إنه الأديب الذي يوضح إلى شباب الأمة العربية أن يجاهدوا ويكافحوا لأجل البقاء في سبيل تحقيق الحرية والكرامة ويزودوا أنفسهم بالعلم الكثير لأنه خير وسيلة لبقاء الأمة. ويرى الثورة سبب الفتنة والدمار. ويوصي شباب مصر صانعي ثورة ٢٥ يناير قائلا:

> "كل الثورات لها ولادة عسيرة التي تسبقها وتليها دماء، فالثورة حيوان مفترس لا يرتوى إلا بالدم، وكذلك شجرة الحرية بالدم تولد وبالدم تعيش ... لذا أخاف على شباب مصر من الفتنة أي أخاف عليهم أن يفتنوا من أنفسهم وهم شباب لم تلوثهم السلطة بعد، وأخاف عليهم من الغرور ومن أن يفسدهم الناس كما أفسدوا غيرهم من قبل" [١٠]

إنه أديب الحرية وشعاره هو تشجيع الناس على أن يطلبوا الحياة بدون القلق والانتشار. فإنه رمز الإبداع ومصدر التطور لكل إنسان عاقل. كما يرى لكل إنسان حرية في التفكير والتصرفات والتنقلات. ولا يخاف من الهجوم على الناس الذين يهاجمون على حرية المجتمع وأفراجها ويدوسون كرامته فيقول:

> "من يأخذ حريتك فهو لص. سواء أ كان يصغ على رأسه تاجا من الذهب أو تاجا من الشوك أو عمامة بيضاء أو سوداء، أو قفصا من السميط والبيض". [١١]

إن أكثر ما كتبه المؤلف في الأربعينات هو رثاء لحاله وسخطه على الناس. كان هذا كله بلا مناسبة وإنما المناسبة فقط في نفسه. إن أول قصة كتبه كان عنوانها " الفارس الذي وقع من فوق الحصان "كان عنوانها طويلا غريبا. واستعرض فيها قدراته الإبداعية والفلسفية. ونشرت عددا من القصص في

جريدة " الأساس " سنة ١٩٤٨ كما ينشر القصة القصيرة كل يوم في " الأهرام ".

وفي روز اليوسف نشر أنواعا من القصص الوجودي كما نشرت له إحدى القصص المسرحية والمسرحية الروائية سنة ١٩٥٢ الذي قدمها إحسان عبد القدوس قائلا " إنك خليط ممتاز من العقاد وطه حسين والحكيم وسارتر وأنى أتوقع لك مستقبلا باهرا ".

فيمكن أن نقول بأن أدبه ينبع من هذه الحياة فهو يصورها ويفسرها ويكشف علاقة الإنسان بما فيها من أشياء فاسدة خاطئة ثم يستمر دعوته إلى تحرير الإنسان من هذه الظروف التي تسبب بؤس المجتمع المادي والنفسي. فليس أدبه يعنى بإبراز الهدف الاجتماعي وعلاجه ومناقشته. فكان يميل إلى الواقعية وللواقعية عنده معنى خاص فهو يصور الحياة ويطلب تعديلها وهذا النوع من التعديل توجهه إلى النظرية الاشتراكية التي يؤمن بها وينظر من خلالها إلى المجتمع والناس. قد عاش أنيس منصور البيئة المصرية الشعبية الأصلية وعرف الكثير من عاداتها وتقاليدها ومشكلاتها وهمومها فاتسعت انطباعاته ومعارفه بتلك المعايشة.

فهو الفنان الذي يجعل لكل ما يفعله معنى أو يتمنى ذلك كفلاح في كل أرض وربان لكل بحر وطيار لكل جو وشاهد على كل حكمة أرضية أو سماوية في كل عصر. وهو كاتب مهموم بالآخرين وبنفسه. لا جدال فيه أن رؤية لأدبه وفنه هي امتداد وجزء من خبراته السابقة في الحياة التي عاشها.

الهوامش:

١. (أ. منصور، نحن أولاد الغجر)

٢. (مأمون غريب، أنيس منصور، حياته وأدبه)

٣. (أ. منصور، مواقف ص ١٤)

٤. (أ. منصور، مواقف ص ٢٤)

٥. (أ. منصور، مواقف ص ١٦)

٦. (أ. منصور، في صالون العقاد كانت لنا أيام ص ٥٠,٥٢)

٧. (أ. منصور، هموم هذا الزمان ص ٢٣-٢٧)

٨. (إبراهيم المعلم، مقدمة هموم هذا الزمان لإبراهيم المعلم)

٩. (أ. منصور قلوب صغيرة ص ١٠)

١٠. (مجلة صوت الأمة. محمد حسنين هيكل ٢٠ اغسطس ٢٠١١)

١١. (أ. منصور.... قالوا)

المصادر والمراجع:

- أنيس منصور، القلب أبدا يدق، مدينة نصر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- أنيس منصور، الكبار يضحكون أيضا، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة.
- أنيس منصور، الوجودية، دار نهضة مصر، القاهرة، إبريل ٢٠٠٧م.
- أنيس منصور، أنتم الناس أيها الشعراء، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، فبراير ٢٠٠٢م.
- أنيس منصور، في السياسة (مقالات)، دار المعارف، لبنان، ١٩٨٠م.
- أنيس منصور، في صالون العقاد كانت لنا أيام، ط٥، دار الشروق، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.
- أنيس منصور، هموم هذا الزمان، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- أنيس منصور، ولكني أتأمل (مقالات)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة، القاهرة،٢٠٠١م.
- أنيس منصور، طلع البدر علينا، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م.
- عمر بطيشة، أنيس منصور، شاهد على العصر، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية.
- مامون غريب، أنيس منصور: حياته وأدبه، منشورات المكتبة الحديثة، بيروت.
- مجدي الغفيفي، آخر ٢٠٠ يوم مع أنيس منصور، مذكرات-مراجعات-اعترافات، دار الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة.

* * *